لمحات من شخصية أبو شادي

بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي

مات أبو شادي بعيداً غريباً عن بلاده، كما كان غريباً فذاً في بلاده، مات ولم تفارق - كما تقول ابنته - ثغره الابتسامة، واية ابتسامة مريرة من دنيا الجحود التي لم تعرف قدره، ولم تدرك فضله ولم تنصف عبقريته.

« آه: أيتها الدنيا ببشريتك المسكينة. ايتها القذرة الموحلة. سأتركك الى صومعتي. وسأقفل شراعات نوافذي»

هذا ما قاله في قصيدته الانكليزية « الجحود ». ولكن الراهب المفكر أقفل الباب هذه المرة الى الابد. ولاول مرة في حياته يضطر ان يجفونا هذه الجفوة ويودعنا على غير ميعاد. وكم يؤلمنا ان يدفن هذا العقل الخصيب الوقاد، ويوارى ذلك القلب الكبير اللماح، ويطير ذلك الروح الرهيف الشفاف وان تفقد بلاده مثالاً انسانياً فريداً في انسانيته وفناناً متسامياً في فنه، ورجلاً فذاً في الرجال، عاش للناس لا لنفسه، عاش عيشة الاعتزاز والجد والقناعة والانجاب، عيشة النحلة الجادة الكدود، المعتزة القنوع، المحبة للاتقان والجمال والايثار والنظام.

قنعت بعيش النحل يحيا لغيره ولكن عزيزا لا يطيق صغارا

يجيء الى الدنيا كريما وينثني ويعطى الذي يعطى جنى وثمارا
ويقنع بالقوت اليسير كانما يصون له القوت اليسير يسارا
فحسبي اذن بذلي حياتي ونعمتي لقومي مثالا عاليا وفخارا
عاش الفقيد مثالا عجيبا للعمل والخلق، الخلق الادبي والفني المنوع، عاش مثالا للخلق النبيل العزيز، ثابتاً على المبادىء التي يعتنقها، ذائداً عنها كما يذود المرء عن عرضه، محباً للحقيقة، الحقيقة التي وهب ماله، دمه، أعصابه، ذكاءه من اجلها. عاش منكراً لذاته الى ابعد حدود الانكار، وعاش كاسطورة خرافية في دنيا الناس. فلا غرو ان يعجل بموته حبه المحموم للعمل، وجهاده الدائب من اجل الحقيقة.

استمعوا اليه يقول في قصيدته الانكليزية « حياتي »

« ما عشت أبداً لنفسي، فالانعزال ليس حياة، ونفسي هي نفسك، والحياة ليست مخاصمة ولا منازعة، فلا تلمني لجهدي وتعبي في ان أخدم وأحب »

وكم اتعب نفسه في خدمة بني وطنه، خدمة الادب الرفيع، خدمة الصناعات الزراعية، خدمة النحالة، خدمة فن التصوير، وكم أحب النفع والخير، واحب الجمال واحب الحب، وخدم هذه الغايات بقلمه الحصيف الذكي، ولسانه العفيف، وريشته المبدعة، وبها وهب الدنيا نوره وضوءه،

ويقال هذا الصالح السهران !
ووصفته بالكركدن مقامراً
بالعرش. قوتل ذلك الحيوان !
لما يئست من النجاة وزمجر الـ
ـموج الغضوب، ونودي الربان
واحيط بالاحرار ضقت بعيشة
ضاقت على أنفاسها القضبان
ان قيل: أين النور؟ داعب قيده
مترنماً بصليله السجان
فحملت فوق الموج قلباً خافقاً
مزجت به الآمال والاشجان
وحملت صبيتك الثلاثة رادة

لم يعلموا ما تخبأ الشطآن
وشريت بالمنفى حياة حرة
لن يستطيع بلوغها الطغيان
كافحت فيها للحياة بعزة
ما مسها وهن ولا خذلان
نسيتك مصر وأنت في شيخوخة
يحتاج فيها الراحة التعبان
ضنت عليك إذ استرحت بتربها
عجباً ايحرم تربه الجثمان !
هل ينصف الاحرار شاعر ثورة
غنى فأصغت للصدى الآذان ؟

***

أأخي، وصفوة من عرفت وذاكري
ان عقني في المحنة الاخوان
ان يعصني حزني عليك فلا ادعت
نفسي الوفاء، ولا انا انسان
هذا رثائي فيك، كنت اوده
لو صيغ فرحة عودة تزدان
ذهب الردى بالامنيات، فلم يعد
الا الأسى يتجرع الثكلان
الركب اسرع في المسير ولم يزل
هذا الحزين الآسف اللهفان...

القاهرة حسن كامل الصيرفي

وهبها حب العمل وحب الفكر ، وحب الخير .

ولن ينسى المنصفون ما اتحف به العربية من معان شعرية اصيلة وما خدم به الفكر الشرقي من اخيلة رفافة . لن ينسى العارفون انه كان اول من آخى بين فن الشعر وفن التصوير في ديوانه « اشعة وظلال » و« اطياف الربيع » . ولن ينسى النقاد انه اول من حمل ريادة الشعر الحر وانه أدخل في الشعر العربي اللون الصوفي العلمي في ديوانه « الكائن الثاني » وانه اول من ادخل النور وحلله وعبّر عنه في مثل قوله « ان الحياة اشعة وظلال » ولن ينكر احد انه كان اكثر شعراء العربية افتتاناً بالطبيعة واغزر من عبر عن بناتها الناطقة والصامتة ولن ينسى الاحرار شعره التقدمي الثائر منذ اكثر من ثلاث عشرة سنة في ديوانه « عودة الراعي » الذي اخرجه عام ١٩٤٣ واشجع من كتب عن الرجعية والطغيان ابان هجرته الى نيويورك . ولا يزال صدى قصائده الحرة في كوارث الامم العربية يرن بقلوبنا ويدق بها دقا قويا .

هذه اللمحات الخاطفة الكاشفة عن اصالة الفقيد وحبه الجريء للتجديد ، تكشف عن عقله الوقاد وقلبه الجياش ، وخلقه القوي النبيل .

وماذا اقول عن جهوده الاخرى المنوعة في العلم والنحالة والدين ؟ ماذا أقول في خدماته الجليلة في هذه الميادين ؟ وماذا اقول في نظرته التي كانت توحد بين العلم والادب والدين ؟ وماذا اقول في نظرته الوردية إلى ما حوله من أشواك وأعشاب ، وماذا أقول في تعدد نواحيه الذهنية والقلبية والجمالية ؟ لنسمعه يعبر عنها بقوله :

اوزع نفسي في صوالح جمة ... اشيد بها العلم والفكر والفن
واخلق امثال الجمال لمهجتي ... واقبس من روح الرشاقة والحسن

حقاً لقد وزع نفسه في جملة ميادين .. ميادين الخلق والابداع ، كما وزع نفسه في جملة جبهات ، ليذود عن آرائه ومعتقداته ومبادئه فتراوحت حياته بين الانتاج والكفاح ولا مفر للرائد منهما ولا مفر للخلاق من جهاد النمال والزنابير التي لا تني عن تخريب خليات العاملين . لقد اعلنها حرباً على ذوي الرنة والتقليد من الشعراء النظامين . واعلنها حرباً على العصابات الادبية واعلنها حرباً على الرجعية الدينية والمتزمتين واعلنها حرباً على السياسيين المخربين ، كما اعلنها حرباً على الظلم والطغيان الاقطاع .

ولم يكن ، علم الله ، يستهويه الكفاح لذاته ، ولكنها البيئة الجامدة الكنود حملته عليه حملا وطبيعته تأباه ولكن ماذا يعمل تجاه مرض النفوس ولؤم الانسان وما كان اكره لقلبه من هؤلاء المرضى واللئام .

خبرت طباع الناس عمراً فلم اجد ... أحطولا اغبى من اللؤم في الناس
وما الحيوان الماكر الواثب الذي ... يغاديك ما بين الخيانة والباس
بأبشع في غدر من اللؤم في الورى ... تناسى أخاه في المرارة واليأس
علام اقتتال الناس والدهر ضاحك ... عليهم وكل كالجريح بلا آسي

شعاره الذي آمن به ، شعاره الذي كان يعلقه في ندوة « أبو لو » شعار المسالمة والتجرد عن روح الشر والمقاتلة ، شعار المحب الودود ، الذي يقدر ما في الصداقة من كنوز . ولقد صادق فما عرف الادباء صداقة اكرم ولا انبل ولا أندى من صداقته وما عرفنا مثالية جادة كصداقته ، بذل في غير من ، وإيثار من غير بوح ، وديموقراطية في غير زيف ، صداقة روحية ادبية عاملة منجية ، صداقة دافئة رافعة موجهة .

الذين عاشروه رافقوه وخبروه ، كالذين كاتبوه وكتب اليهم واتصلوا به روحياً ، بكوا على فقده بقلوبهم ، وذرفوا الدموع على اعقابه . وانه ليقول في قصيدته « اصدقائي » :

لي قلة الاصدقاء حسبتهم ... فوق الجواهر للبخيل المعدم
لم ينظروا يوماً إلي بريبة ... بل يجلوني كالنبي الملهم
منهم قبست أشعتي واليهم ... عادت مفاخرهم وعدت اليهم
دار الزمان ولم يدوروا حوله ... وتجمعوا حولي وحول تألمي
خلقوا لي الأفراح من صلب الاسى ... حتى كأن الكارثات تنعمي
لا منهمو من باع كنز مودتي ... وكأنه قد باع عرضي او دمي

القاهرة — **مصطفى عبد اللطيف السحرتي**

واخيراً صدر ...

الكتاب الذي حفظت ذخائره بطون الاسفار عدداً من القرون الطويلة ، والذي انتظره القراء ورواد المعرفة :

عيون الاخبار

المأثرة التي تزين نتاج ابن قتيبة ، والتي تفخر بتقديمها الى العالم العربي :

دار مكتبة الحياة — دار الفكر